

حلم الحفاء

بقلم

نجيب يوسف بروى

المدرس بطنطا الثانوية للبنات

هل سبق لك أن حلمت أنك تذهب إلى مقر عملك حافياً ؟ ! هذا هو الحلم الذى أقبل علىّ به زميل ذات يوم طالباً إلىّ تفسيره . وكانت هذه الرؤيا تتنابه متكررة . ففى كل مرة يحلم بأنه ذاهب إلى مدرسته ، ودخل الفصل وهو حافى القدمين ، الأمر الذى كان يسبب له كثيراً من الضيق والانزعاج . وحلم الحفاء ذائع الانتشار . وقد يكون من بين القراء من خبره بنفسه . وقد سمعته من أكثر من مصدر . سمعته من هذا الزميل ، ومن غيره . وسمعته من سيدة (ن ف) فى نحو الثلاثين من عمرها . والحلم كما ترويهِ : « رأيت فيما يرى النائم أنى فى حفل حافل يضم عليه القوم من الأجانب رجالاً ونساء . وكلهم فى ملابس السهرة الفاخرة . والحفل فى قاعة فسيحة باهرة الضوء ، يحيط بها أعمدة من رخام . . . وجدت نفسى فى هذا الحفل أرتدى ثوباً طويلاً للسهرة أبيض اللون . وكنت محط الأنظار ، وموضع حفاوة وإعجاب . وأقبل علىّ جميع من فى الحفل يرحبون بى ويحيونى . وكنت أرد عليهم تحياتهم بلغتهم ! وكلما تقدم منى أحدهم محيياً ، أقف وأحييه أو أسلم عليه وأنا جالسة . إلا أنى فى كلتا الحالتين وطوال الحلم كنت أحرص على أن يغطى طرف الثوب قدمى لأنهما كانتا عاريتين وبدون حذاء ! وعلى الرغم من أنه لم يبد على من حولى أنهم يلحظون ذلك ، إلا أنى كنت من حفاء قدمى فى شدة الضيق والحيرة والخجل . وحرصت على ألا يكتشف الحاضرون ذلك ، فجمدت فى مكانى . وبينما كان المدعوون يرقصون على أنغام الفالس ، لزمت مكانى ولم أبرحه .

وأخفيت قدمي بين المقعد وذيل ثوبي الطويل . « واستيقظت وأنا أعجب ماذا دهاني حتى أذهب إلى هذا الحفل الرائع ، حافية القدمين ! ! » .

أقدم هذا الحلم لمن يرغب في المساهمة في تفسيره . والطريف فيه أنه يقبل التأويل على مذاهب شتى . وإذا اصطنعنا طريقة كل من : فرويد ، وأدلر ، ويونج ، وقمنا بتطبيقها على هذا الحلم ، جاء تفسير هذا المثال الخاص وهو حلم الحفاء ، نموذجاً موضحاً للطريقة التي يتبعها ، والتي يدعو إليها كل منهم في تفسير الأحلام . غير أنه قد يوجه ، لأول وهلة ، لهذا المنحى من التطبيق ، أننا قد نتقيد مقدماً بأفكار موجهة ثابتة ، سبق لنا اعتناقها ، ونحاول تطبيقها على هذا الحلم . وحيث أن الحلم يعبر عن نفسه بلغة الحالم ، وحيث أن أفكار الحلم وحوادثه ، تعبر عن نفسية الحالم وظروفه ، فينبغي أن نحصر على ألا نتحيز لفكرة سابقة ولمبدأ معين نحاول أن نشته . مثل هذا الاعتراض يكون في موضعه لو أننا تناولنا حلماً فردياً . وحيث أن حلم الحفاء الذي نحن بصدد تفسيره ذائع الانتشار ، فيمكن اعتباره حلماً نموذجياً . وفي الأحلام النموذجية يمكن الاستغناء عن التداعي الحر الذي يمدنا به الحالم . بل إن الحفاء في الحلم النموذجي يبدو كرمز . فلنا أن نصطنع ما شئنا من الطرائق لتفسيره : سواء باستخدام التداعي الحر ، أو بتأويل مدلول الرمز ، أو بهما معاً .

وحلم الحفاء وإن كان ذائع الانتشار ، إلا أنه يلوح أن هنالك طبقة معينة لن يكون هذا الحلم ملحوظاً بينها ، وهي طبقة الحفاة في حياتهم الواقعية ! . فالفلاح مثلاً الذي اعتاد السير حافياً لن يلاحظ مثل هذا الحلم . ومثل ذلك يقال عن الزوج ، العراة تقريباً ، من غير الممكن أن ينتاب أحداً منهم مثل هذا الحلم . ومعنى ذلك أنه ، حتى في الأحلام ، ينبغي أن ننظر إلى الشخصية في علاقتها بالبيئة الاجتماعية .

قد يذهب البعض إلى الاعتقاد بأن حلم الحفاء نتيجة لتنبيه خارجي ، أو نتيجة لمؤثر حسي : كأن ينكشف الغطاء عن القدمين أثناء النوم . غير أن مثل هذا المؤثر الحسي الخارجي لا يكفي وحده لأن يكون سبباً في إثارة الحلم . إذ ينطوى الحلم على حوادث وصور وتفاصيل لا تتمشى مع طبيعة مثل هذا المؤثر الحسي . والتجارب التي أجريت على أثر المنبهات الخارجية الحسية في إثارة الأحلام دلت على أن المنبه الواحد يثير أحلاماً مختلفة . على

أنه لا يؤدي كل مؤثر حسي بالضرورة إلى حلم . وقد يفيد الحلم من المؤثر الحسي ويستخدمه في موضوعه ويضمنه مشموله النفسي . فالحلم نشاط نفسي خالص ، وينبغي تفسيره تفسيراً خاصاً به . والحلم نشاط نفسي تلقائي ينبعث من اللاشعور ولا سلطان للشعور عليه . ولذلك لا نملك توجيه دفعة حوادثه وأفكاره وفق أغراضنا وهوانا . والحلم ظاهرة ترمى إلى غرض ، وله وظيفة . وليس في هذا الحلم مصادفة . فكون الحلم اتخذ هذه الصورة الرمزية بالذات ، يقضى بوجود حتمية سيكولوجية ، وبأن الحلم تعبير عن دوافع داخلية ذات مغزى وتحتاج إلى تفسير .

* * *

يرى فرويد أن كل حلم يكشف عن تحقيق رغبة . وفي هذا الحلم يبدو تحقيق أكثر من رغبة واحدة : ففيه تحقيق للرغبة في الاختلاف إلى الحفلات الساهرة . ومما هو جدير بالذكر أن الحاملة — كما علمنا بالتداعي الحر — لم تختلف في حياتها الواقعية إلى مثل هذا الحفل . وصور الحفل في الحلم مأخوذة عما شاهدته في السينما . وفي هذا الحلم تتحقق كذلك الرغبة في ارتداء فساتين السهرة ، وفي التخاطب بلغة أجنبية . . . غير أن هذه الرغبات تبدو كحوادث عرضية ، أو كتفاصيل ثانوية في الحلم . فالعنصر الحرج هو الحفاء الذي يمكن اعتباره كرمز . هذا الحفاء هو ما يحتاج إلى تفسير .

أفرد فرويد في كتابه « تفسير الأحلام » فصلاً عن الأحلام النموذجية . وهي الأحلام الدائخة الانتشار والتي يحلم بها عدد كبير من الناس بطريقة واحدة متشابهة . والتي يبدو أنها تحمل دائماً نفس المعنى ، مهما تكن شخصية الحالم . وعلى الرغم من أن تفسير الأحلام يستخدم التداعي الحر ، الذي يكشف عن الأفكار اللاشعورية الكامنة خلف المحتوى الظاهر للحلم ، فإنه يمكن الاستغناء عن التداعي الحر في تفسير الأحلام النموذجية ، ولا سيما ما يحتوي منها على رموز .

يبدأ فرويد فصله هذا عن الأحلام النموذجية بحلم العرى ^(١) — nakedness ولا يشترط أن يكون العرى في الحلم كاملاً . وإنما يظهر الحلم في صور شتى : كأن تظهر الحاملة بملابسها الداخلية أو بقميص النوم . وقد يحلم ضابط الجيش بأن سترته كانت دون ياقة أو دون حزام هذا مما يدعونا إلى اعتبار الحفاء

جزءاً من العرى . وبذلك يمكن تطبيق تفسير فرويد لحلم العرى على حلم الحفاء . ويشترط فرويد لكي يكون حلم العرى نموذجياً ، أن يشعر الحالم بالضيق والقلق والحجل ، ويجاهد في الحرب أو في الاختباء ، ولكنه يعجز عن أن يغير من أمره . يُرجع فرويد أصول حلم العرى إلى ذكريات الطفولة الأولى ^(١) فالرغبة في عرض الجسم عارياً ، كالرغبة في العودة إلى الفردوس ، حيث لم يكن الإنسان قد عرف الحجل بعد . ويحد فرويد نظائر لهذا الحلم النموذجي كذلك في القصص الخرافية التي تروى للأطفال . فحلم العرى — كما يراه فرويد — يكشف عن رغبة طفلية مكبوتة في عرض الجسم عارياً ، حتى ليطلق على « أحلام العرى » اسم « أحلام العرض » ^(٢) .

وإذا اصطنعنا طريقة فرويد ، جاز أن يكون حلم الحفاء كحلم العرى ، كلاهما يكشف عن رغبة طفلية مكبوتة . وبذلك قد يكشف حلم الحفاء عن الرغبة في التخفف من أعباء التقاليد ، وعن الرغبة في التحرر من قيود المجتمع ، والعودة إلى بساطة الطفولة وسذاجتها .

غير أن مثل هذا التفسير لا يأخذ في الاعتبار التناقض البين بين فستان السهرة وحفاء القدمين . أى أنه لا يتناول الشخصية بأكملها . كما أنه لا يتناول الشخصية في علاقتها بالبيئة الاجتماعية . وحيث أن الملابس ظاهرة اجتماعية ، فالحفاء إشارة إلى الشيء في غير موضعه . أو هو تعبير عن عدم الانسجام أو عن ناحية نقص . يمثل الحفاء تياراً سلبياً مضاداً يهدد الشخصية في تكاملها ووحدتها واثلافها مع ظروف بيئتها . ويرى شتيكل ^(٣) أن الحلم يصور الصراع بين الرغبة والرقيب أو بين النزعات المكتوبة والقوى الكابتة . فإذا كان فرويد قد عنى بالرغبة الطفلية ، أى بقطب واحد من قطبي الصراع ، فإنه يتبقى القطب الآخر وهو الرقيب الذى يلوح أنه هو الذى يسبب القلق والحرج في الحلم . وإذا طبقنا رأى شتيكل في أن الحلم تصوير لقطبي الصراع وهما الرغبة والرقيب ، على حلم الحفاء ، كان الحفاء نتيجة للرغبة ، والكساء من فعل الرقيب . ومع ذلك نجد صعوبة في قبول فكرة أن الحلم بالحفاء ينم عن رغبة فيه . وأن الحاملة كانت تخفى رغبة لاشعورية في

Ibid. p. 238.

(١)

"Dream of nakedness are exhibition—dreams." Ibid. p. 239.

(٢)

W. Stekel : "The Meaning of The Dream Symbolism"; in An Outline of (٣)

Psychoanalysis, edited by J.S. Van Teslaan, Modern Library

السير حافية ! فالحفاء غير مرغوب فيه لا في اليقظة ولا في الحلم . إلا إذا كان في الأحلام مناقضة للحياة العادية . ولا تتأني مثل هذه الرغبة ، إلا إذا سلمنا بأن الحلم يختلف اختلافاً تاماً عن تفكير الصحو ، وبأن هنالك تناقضاً بين الشعور واللاشعور ، يؤدي إلى أن تخضع الأحلام لقواعد تناقض قواعد التفكير العادي .

* * *

ينتقد أدلر^(١) مثل هذه التفرقة « فالحياة الشعورية واللاشعورية وحدة متكاملة ولا تناقض هنالك بين النوم واليقظة ، أو بين أفكار الأحلام وأفكار الصحو ، إن كلا منها إلا مراتب من نشاط عقلي واحد . . . ويدعو أدلر إلى ضرورة النظر إلى شخصية الفرد كلها متكاملة ، وإلى تأمل الفرد كوحدة ، وإن اختلفت أشكال النشاط التي تصدر عنه » ص ١٢٩ . وبما أنه ليس هنالك انفصال بين حياة الحلم وحياة اليقظة ، فإن الشخصية كلها تنعكس في الأحلام . « فإذا كان الفرد — في الواقع — شخصية واحدة ، في حالات صحوه ونومه ، فإنه ينبغي أن تكون الغاية من الأحلام ، غاية واحدة تتوافق مع مجرى شعوره في كلا الحالين » ص ١٣٠ . « فالغاية من الحلم ، على رأى أدلر ، تأييد أسلوب الحياة » ص ١٣١ .

ولكى نوضح كيف ينم الحلم المفصل الذي أوردناه عن طابع الشخصية بأكملها وكيف يتفق مع النمط الذي تسير عليه الحياة النفسية للحاملة ، نعود إلى حياة الحاملة : نشأت (ن . ج) نشأة ريفية متواضعة . . . إلا أنها استطاعت بحماها وذكائها ، ونتيجة لزواجها مرتين ، أن تقفز بخطوات سريعة واسعة سلم الترقى الاجتماعي حتى أصبحت في منزلة يحسدها عليها بنات جنسها ممن هن في مثل ما كانت عليه قبل ارتقائها . وهي تحتل مكانتها الاجتماعية الحالية عن جدارة . ولا يمكن أن ينبئ حاضرها عن ماضيها . غير أن مثل هذا الحلم يكشف عن أنها تبذل في سبيل الاحتفاظ بالمستوى الحالي ، ولتساير وضعها الاجتماعي الراهن ، تبذل جهداً ليس باليسير . وهذا الجهد لم يضع هباء بل ترك أثراً ظهر في حلمها ، الذي يمكن اعتباره مرآة لما في نفسها . فالشعور بالدونية في النهار ، لم يزايلها خلال الليل . فليس الحلم إذن سوى نتاج لأسلوبها في حياتها . وعلى ذلك يمكن — إذا اصطنعنا طريقة

(١) « علم النفس الفردي » تأليف الدكتور إسحق رمزي — الناشر دار المعارف بالقاهرة

١٩٤٦ (من ص ١٢٣ إلى ص ١٣٤) .

أدلر فى تفسير الأحلام - اعتبار حلم الحفاء نموذجاً مجسماً كاملاً ومعبراً أصدق تعبير عن «عقدة النقص». فالحفاء فى الحلم استمرار للقصور الذى تعانىة الشخصية، انحدر معها آناء الليل، كما أخذ عليها جماع تفكيرها فى أثناء النهار. وعلى ذلك فقد تكون الرغبة فى غشيان الحفلات الساهرة، أو فى ارتداء فساتين السهرة متعارضة مع الواقع أو مع شعورها بالدونية وبأنها لن تكون (ملء ثوبها). أو قد يعنى الحلم أن زخرف الثوب لن يغنى عن مرارة الواقع. فإذا نجح ثوب السهرة الأبيض فى التويه على الناس، فهيهات أن ينجح فى إخفاء ما فى النفس عن النفس. وهكذا يسيطر أسلوبها فى حياتها على حلمها. وليس فى الحلم مناقضة لحياتها. بل يظهر فيه بجلاء ووضوح الشعور بالقصور الذى ينتابها كلما تذكرت نشأتها، وكلما عقدت صلات اجتماعية جديدة مع أفراد الطبقة الراقية. وعلى ذلك فهذا الحلم النموذجى حلم معبر عن الشعور بالقصور الذى ينتاب شخصية الحاملة. ويتفق مع النمط الذى تسير عليه حياتها النفسية: فحياتها كثوبها، بيضاء ناصعة، لا تشوبها شائبة لولا أن أقدامها عارية. وفى حفاؤها إشارة رمزية إلى رقة حال أصلها. ويمكن أن نلخص أوجه الاختلاف بين طريقة كل من فرويد وأدلر فى تفسير مثل هذا الحلم فيما يأتى :-

١ - يرجع فرويد حلم العرى - وحلم الحفاء كذلك، إذا اعتبرنا الحفاء جزءاً من العرى - إلى الرغبات الطفلية المكبوتة. وهو تفسير من جانب واحد. أما أدلر فينظر إلى الحلم على أنه ينم عن أسلوب الشخصية فى حياتها.

٢ - يقول فرويد بوجود تناقض بين الشعور واللاشعور، وبأن تفكير الحلم يختلف عن تفكير الصحو. ينفى أدلر وجود مثل هذا التناقض: (فالفرق بين تفكير النوم، وتفكير اليقظة ليس فاصلاً باتاً. والانفعالات التى يثيرها الحلم، التى يستشعرها المرء لا بد أن تسبق وأسلوبه فى الحياة) ص ١٣١.

٣ - يوجه فرويد جل عنايته للنزعات اللاشعورية. بينما يلعب اللاشعور دوراً صغيراً نسبياً فى سيكولوجية أدلر. فبينما يعنى فرويد بنزعات الهو (Id)، يتشبث أدلر بالأنات (Ego).

وطريقة كل من فرويد وأدلر تحليلية. والطريقة التحليلية العليا - كما يقول يونج - لا تشمل إلا على نصف الحقيقة. وتعتبر الطريقة التركيبية ليونج مكملة للطريقة التحليلية.

يمتاز مذهب يونج في « علم النفس التحليلي » بالشمول ، والعمق ، ورحابة الأفق . يبدو الشمول في نظريته عن الليبدو أو الطاقة النفسية . وهي أعم من فكرة كل من فرويد وأدلر . فيتضمن الليبدو الميول الجنسية التي يعنى بها فرويد ، والميل إلى السيطرة الذي ينادى به أدلر . بل إن الليبدو أوسع وأشمل منهما معاً . ويبدو العمق في فكرته عن اللاشعور الجمعي ، وهو طبقة أبعد غوراً في أعماق النفس . وهو فطري موروث ، يشترك فيه الناس جميعاً . أما رحابة الأفق فتبدو بجلاء ووضوح في طريقته التركيبية التشييدية التي لا تقتصر — كما يفعل فرويد وأدلر — على التحليل والتعليل ، والإحالة إلى الأسباب والدوافع الماضية ، وإنما تعنى بالتشيد وبتفهم الأهداف والغايات ، وبتحقيق الوئام بين الدوافع والغايات ، وبإيجاد علاقات بين خلجات النفس والفلسفات الكونية كما تبدو في الأساطير والديانات .

يتعذر علينا في هذا المقام — ونحن بصدد تفسير حلم — أن نعرض لفلسفة يونج التي تمثل نظاماً شاملاً ، مهما توخينا في ذلك الإيجاز . وليس مذهب يونج مجرد مجموعة آراء متفرقة في موضوعات مختلفة . وإنما ينتظم هذه الآراء في فلسفة شاملة ونظام من العلاقات : فطريقته التركيبية ، وطريقته في العلاج النفسي ، وطريقته في تفسير الأحلام وفي التداعي الحر ، كلها مترابطة وتقوم على أساس فكرة الليبدو ، والنماذج السيكلوجية ، واللاشعور الجمعي ، والصور الأولية البدائية . . . والإدراك الصحيح لأحد هذه الموضوعات رهن بالإلمام بطريقته في تناول الموضوعات الأخرى ، لأنها تكون كلها وحدة .

وإذا أردنا أن نصطنع طريقة يونج في تفسير الأحلام ، لتطبيقاتها على حلم الحفاء ، كان لزاماً علينا أن نأخذ في الاعتبار فكرته الجوهرية عن « الصور الأولية البدائية — Archetypes » التي يحتوى عليها اللاشعور الجمعي ، والتي تبدو في الأساطير كما تبدو في الأحلام .

يرى يونج أنه إلى جانب اللاشعور الفردي ، يوجد لاشعور جمعي يشترك فيه الناس جميعاً ، ويحتوى على انطباعات من خبرات الجنس توارثناها على مر الأجيال ، فيحتوى اللاشعور الجمعي على الصور الأولية البدائية وهي نماذج للتعبير درج عليها النوع في ارتقائه ، وطرائق للتفكير انحدرت إلينا من أسلافنا الأولين . تظهر هذه الصور من وقت إلى آخر بين شعوب مختلفة وفي عصور مختلفة . ويبدو تشابهها في دوافع الأساطير ورموزها ، وفي الأحلام ، وفي القصص الخرافية ، وفي أوهام

المعتمدين . تظهر هذه الصور والرموز المتشابهة تلقائياً فى خطوط متوازية ، فى أنحاء العالم المختلفة ، دون أن يكون هنالك احتمال فى أن يكون هذا التشابه نتيجة للانتقال والتوزيع . هذا التشابه فى الرموز الأسطورية وفى الأحلام كما يبدو فى عصور مختلفة ، وبين الشعوب المتباعدة ، هو أكبر دليل - عند يونج - على وجود اللاشعور الجمعى . « يحتوى اللاشعور الجمعى على الصور والرموز الأسطورية . ولهذا السبب تعتبر أساطير الشعوب أكبر دليل وأصدق معبر عن اللاشعور الجمعى . ويمكن اعتبار الأساطير كلها كنوع من الإسقاط من اللاشعور الجمعى »^(١) ، فما يستدل به يونج على وجود اللاشعور الجمعى ، التشابه بين الأساطير فى مختلف الأمكنة والأزمنة . والتشابه بين الرموز الأسطورية وبين الأحلام عند الناس على اختلاف أجناسهم . فتحليل الأحلام يحتاج إلى معرفة بالأساطير . فالأسطورة كالحلم كلاهما من نتاج اللاشعور . وكما أن يونج يقول إن الأسطورة هى « حلم الشعب » ، فكذلك يقول شتيكل إن الحلم هو « أسطورة الفرد » . فالأسطورة تلقى ضوءاً على معنى الحلم . والبحث عن نظائر للأحلام فى الأساطير والديانات ركن هام من الأركان التى تقوم عليها طريقة يونج فى تفسير الأحلام . (راجع فى هذا الصدد تحليل يونج لبعض أحلام حلمها مكدوجل)^(٢) فإذا اصطنعنا طريقة يونج فى تفسير الأحلام ، جاء البحث عن نظائر لحلم الحفاء فى الديانات والأساطير متمشياً مع منهجه .

استلقت نظرنا وجه الشبه الكبير بين حلم الحفاء ، وحلم الملك بختنصر . حلم هذا الملك بتمثال رأسه من ذهب وأقدامه من طين . وقد ورد هذا الحلم فى التوراة ، فى سفر دانيال ، الأصحاح الثانى . وفيما يلى نصه : « * فكنت أنت الملك ترى وإذا تمثال واحد جسيم وكان التمثال عظيماً ورفيع القامة واقفاً قبالك ومنظره مخوفاً * رأس هذا التمثال هو من ذهب إبريز والصدر والذراعان من فضة والبطن والفخذان من نحاس * والساقان من حديد والقدمان قسمة منهما من حديد وقسمة من خزف * » « والأقدام من طين أو من خزف - The Feet of Clay » اصطلاح شائع فى الأدب الإنجليزى ، يشير إلى الخصائص الدنيا ، أو إلى المظهر الخلاب القائم على أساس هش .

C.G. Jung : "Contributions To Analytical Psychology"; p. 111.

(١)

W. McDougall : "An Outline of Abnormal Psychology"; Ch. IX.

(٢)

وقد يكون الحفاء في الحلم ، كأقدام التمثال من طين ، كلاهما من النماذج الأولية البدائية ومن نتاج اللاشعور الجمعي إذا تمسنا مع طريقة يونج .

لو أن للأحلام دلالة على المستقبل ، لحاز أن يكون حلم الحفاء نذيراً وباعثاً على التطير . فقد يشير الحفاء إلى العوز والضيق . . . أو إلى سوء المصير . . . حقيقة قد ظهر في بعض التفسيرات التي وضعها يونج في تحليله لبعض الأحلام^(١) إشارات إلى المستقبل . غير أننا بمراجعة الأحلام الكثيرة التي قام بتحليلها يونج ، نستخلص - فيما يتعلق بالطريقة - أن يونج لا يتنبأ بحدوث المستقبل الخارجية المطلقة مستقلة عن ظروف الحلم . وإنما يتخذ من الأحلام شواهد على احتمالات يرجح أن يصادفها الحلم في المستقبل . فهو يشير ، بمقتضى طريقته التركيبية ، إلى أن أسلوب الحلم في حياته ، كما يتضح من أحلامه ، قد يفضي به إلى اتجاهات معينة ، قد يصادفها وقد لا يصادفها في المستقبل . وليس هذا من التنبؤ بالغيب في شيء . ونحن لا نميل إلى الاعتقاد بأن حلم الحفاء نذير ، ولا هو مدعاة إلى التشاؤم من المستقبل . بل أولى به أن يستمد دلالاته من الماضي . لأن الخبا في الغيب في الخارج ، يلوح وكأنما هو إسقاط لما هو مخفي في اللاشعور في الداخل . ولا يطيع الحلم إلا قوانين اللاشعور . وفي الدوافع اللاشعورية تبدو الحتمية ، على حين تبدو المصادفة الحقيقية في الحوادث الخارجية . وإذا تظاهر في الأحلام الرغبات الدفينة والخلجات الكامنة ، سافرة على حقيقتها أو بطريقة رمزية مقنعة ، لا نستطيع أن نخدع بها أنفسنا . فالأحلام مصدر موثوق به ومعبر بطريقة موضوعية صادقة عن محتويات اللاشعور . فقد يدل الحفاء في الحلم على شعور بالخوف من العوز والضيق في المستقبل . وقد يرمز الحفاء إلى فقدان الشعور بالأمن . وإذا فسر حلم السيدة (ن . ف .) الذي أوردناه مفصلاً في صدر هذا المقال ، بالطريقة التركيبية ليونج ، لما كان الحلم إشارة إلى ماضى اللاشعور وحسب ، بل إنه يحدد اتجاهات للشخصية في سلوكها المستقبل . فلو اعتبرنا حلم الحفاء عرضاً Symptom لبدا الحلم معبراً بطريقة مسرحية عن الفشل الذي يهدد الشخصية في محاولتها التلاؤم مع الوسط الاجتماعي ، وعما تحس به الحاملة من فقدان الشعور بالأمن . ولو علمت كيف تفيد منه الحاملة ، لاتعظت ولم تتغال في طموحها ، لأن الحلم يدعوها إلى القصد . من ذلك يتضح أن إشارة يونج ، بمقتضى طريقته التركيبية ، إلى المستقبل

يحددها ويتحكم في توجيهها الظروف الماضية للحالم وميوله واهتماماته الخاصة . ومعنى ذلك أن صور الحلم لا يمكن أن تحمل دائماً نفس المعنى في مختلف الحالات . وبالتالي فإن مغزى الحلم نسبي يختلف باختلاف الظروف والملابسات . فإذا اعتبرنا الخفاء في الحلم رمز ، فإن دلالة هذا الرمز (باعتبار المستقبل) ليست ثابتة ، وإنما تختلف باختلاف الملابسات الماضية . دلالة هذا الرمز ، كما يقول أنصار التحليل النفسى ، ليست في الخارج ، وإنما هى دلالة على الدوافع اللاشعورية في الداخل . ليست للرمز دلالة على المستقبل وإنما يستمد الرمز دلالاته من الماضى . فالحتمية السيكلوجية تبدو في الدوافع الداخلية وهذه جذورها في الماضى . أما المصادفة الحقيقية فهى ما تبدو في الخارج وفيما قد يحدث أو لا يحدث في المستقبل .

وبعد هل حلم الخفاء نتيجة لمؤثر حسى ؟ هل هو تعبير عن رغبات طفلية مكبوتة ؟ إذا أخذنا بقول فرويد . هل هو تعبير عن القصور الذى تعانى به شخصية الحالم ، ويتفق مع النمط الذى تسير عليه الحياة ؟ إذا اصطنعنا طريقة أدار . هل هو من الصور الأولية البدائية ومن نتاج اللاشعور الجمعى ؟ إذا أخلصنا الولاء لطريقة يونج . هل هو نذير سوء وباعث على التطير ؟ . إذا استبعدنا الاحتمالين الأول والأخير ، تبقى تفسيرات على طريقة كل من الثلاثة الكبار . ولسنا في موقف يسمح لنا بأن نقطع بأى هذه التفسيرات أصدق . وإن كان التفسير على ضوء طريقة أدلر يبدو أكثرها اتفاقاً مع ظروف الحاملة . حسبنا أننا عرضنا لمختلف المذاهب في التفسير . ويحتمل أن توجد تفسيرات أخرى . وليس من المهم ، بعد كل هذا العناية ، أن نكون قد وفقنا إلى تفسير الحلم . فلا يوجد معيار موضوعى صحيح ، ولا قاعدة ذهبية في تفسير الأحلام . وإنما الذى يعيننا هو مدى التوفيق في الاستمسك بالمنهج ، وفى الولاء للطريقة . وهذا هو ما ندعو الطالب المبتدئ إليه . فهو أحوج ما يكون إلى اصطناع كل الطرق الممكنة . أحوج ما يكون إلى وضع وجهات النظر المختلفة جنباً إلى جنب ، وتقليب وجوه الرأى فيها ، والنظر إليها من أفق رحب . آفة الفكر التعصب المبكر . والتقييد مقدماً بمبدأ موجه سبق الاقتناع به ، غالباً ما يؤدي إلى مجانبة الصواب . ولذلك ينبغي النظر بتفهم وب تسامح وقلب وعقل متفتح لوجهات النظر المختلفة . والاستعانة بشتى المناهج . فالحقيقة السيكلوجية بالغة التعقيد معنة في الخفاء . تناولتها كل مدرسة من ناحية معينة ، وألقت عليها ضوءاً من زاوية خاصة ، دون أن تلم مدرسة واحدة منها بالحقيقة جميعها .

نجيب يوسف بدوى